
مدرسة رواق الحنبليات
قسم الدورات العامة
رواق الحنبليات
رجب 1440
شرح كتيب
الافتقار إلى اللَّه لب العبودية
للشيخ
أحمد الصويان
شرح:
سارة بنت محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية : شرح كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله تعالى فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،

هذا هو الدرس الثاني من دروس شرح كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية. وسنتحدث فيه عن معنى الافتقار إلى الله عز وجل.

يقول الشيخ أحمد:

"من أخص خصائص العبودية الافتقار المطلق إلى الله تعالى، عرفه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله "حقيقة الفقر ألا تكون لنفسك ولا يكون لها منك شيء بحيث تكون كلك لله وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء منافٍ للفقر". الفقر الحقيقي دوام الافتقار إلى الله عز وجل في كل حالٍ، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامّة إلى الله تعالى من كل وجه".

التعليق:

ماذا يعني هذا الكلام؟

فبالرغم من أن لدي حظوظ، وشهوات، وطلبات خاصة، أحيانًا تتعارض تلك الطلبات مع ما يحب الله عز وجل. فما أنزله الله في القرآن وما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا به وينهانا عنه هو ما يحب الله سبحانه وتعالى، وما نهانا عنه هو ما يبغض الله سبحانه وتعالى. فعلى سبيل المثال امرأة تحب أن تخرج بدون حجاب في حين أن الله سبحانه وتعالى أمرها بالحجاب، إذن هناك تعارض بين ما تحب وشهوتها وحظ نفسها مع ما يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضى. حينها لو أنها مفتقرة لله سبحانه وتعالى وتعلم قدر نفسها وقدر الله عز وجل سوف تدرك أن ما يحبه الله سبحانه وتعالى هو الأفضل لها، ستدرك أن حظ نفسها لا يجوز أن يتقدم على ما يحب الله سبحانه وتعالى، ستدرك أنها فقيرة إلى الله وضئيلة وضعيفة. في حين أن الله سبحانه وتعالى القوي الغني هو الغني الغنى المطلق القوي القوة المطلقة وهو على كل شيء قدير. وحين

أدرك ضعفي واحتياجي سأطيع أوامره وأقدم محبته على حظ نفسي، فالافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أن يجرد قلب العبد من كل حظوظه وهواه.

فهل هذا يعني أنه لن يكون لدي حظ لنفسي يخصني؟

أليس الأكل والشرب من حظ نفسك؟ أليس الزواج والخلفة وتحقيق طموح معين والعمل بعمل أرضاه لنفسي ليس به معاصي لله سبحانه وتعالى من حظ نفسك؟ أليس فعل كل شيء أحبه لا يغضب الله كالرسم والقراءة من حظ نفسك؟ فهل هذا يعني أن أتوقف عنهم جميعًا حتى أكون مفتقر ومتجرد إلى الله سبحانه وتعالى؟ وبالطبع فإن هذا الكلام خطأ وغير مقصود؛ لأن هناك مباحات أباحها الله سبحانه وتعالى لنا. وهنا يأتي دور الإنسان في استغلالها على النحو الذي يجعله مثاب عليها، أو فعلها كمباح فقط ولا يكون لك أو عليك منها شيء.

ولكن المقصود الحقيقي هنا هو تجريد النفس من الحظوظ المتعارضة مع الدين، الحظوظ المتعارضة مع ما يحب الله سبحانه وتعالى والتي نهانا الله عنها. فهناك حظوظ للنفس بالفعل نهانا الشرع عن فعلها، وبفعلها نكن قد خالفنا مراد الله وما يحبه سبحانه وتعالى. وقد تذهب بنا تلك المخالفة إلى حد الكفر؛ مثلًا هناك أشخاص يريدون أن يفعلوا ما يحبون دون وعظ ودون أن يحدثهم أحد بالحرام والحلال، فيقولون لأنفسهم تسهيلًا إنه لا يوجد رب وأنا لست مقتنع بالإسلام، فإن وصل إلى تلك المرحلة يكن قد خالف أصل العبودية بذلك وأصبح الافتقار صفر، فالافتقار درجات.

والمتجرد يحب الله سبحانه وتعالى ويعرفه؛ لأنه من عرف الله أحبه، فتجده يمتثل لأوامره، فمثلًا يصلي ويلزم نفسه بالصلاة حتى وإن كانت الصلاة تأخذ من وقته، ويترك ما حرم الله عز وجل حتى وإن كان متوافق مع ما يحبه هو. هناك أصل التوحيد إذا خالفناه أصبحنا غير مفتقرين لله عز وجل نهائيا وتركنا الدين بالكلية. وهناك في الدين نفسه درجات للناس. فكلما حقق الإنسان عبودية أكثر؛ كلما ترقى في مراتب التجرد والعبودية وهي درجات بعضها فوق بعض والشاطر الذي ينافس عليها ليفوز.

هناك أيضًا نقطة مهمة جدًا لابد من فهمها لمنع اللبس، هناك محبة خالصة لله سبحانه وتعالى، فأنا أحب الله ورسوله وأحب أوامره حتى لو كنت أشعر بالمشقة فيها أو الكره الطبعي تجاهها. فمثلا يقول الله سبحانه وتعالى **" كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ"** فهو كره لنا ولكنه كتب علينا. فلا يعني هذا أننا سنكرهه الكراهية المنهي عنها نهيا شرعيا؛ لأننا نحبه من جهة أن الله سبحانه وتعالى أمرنا به. لكن هناك كراهية أو بغض طبيعي متعلق بالمشقة. فمثلا هناك إنسان يكره السفر جدا ولكنه مجبر أن يسافر لأداء فريضة الحج مثلا، وهنا تجتمع المشاعر

المتناقضة في القلب؛ حبه واشتياقه لزيارة بيت الله الحرام وكرهه للسفر ومشقته وهذا لا يدخله في نطاق الكراهية المذمومة شرعًا.

وهناك المحبة الشركية -نسأل الله عز وجل العفو والعافية-؛ وهي أن يكفر الإنسان بالله عز وجل لشيء يحبه. على سبيل المثال حب أحدهم لامرأة كافرة شرطت عليه الكفر ليتزوجها فكفر بالله سبحانه وتعالى. مثال آخر شخص يريد أن يتحرر من قيد الحرام والحلال فيكفر بالله حتى يتحرر. وهؤلاء غلبوا المحبة الشركية على محبة الله عز وجل.

وهناك **المحبة الطبيعية؛** وهي المحبة التي تشمل كل ملذاتك، كل شيء تحبه بطبعك. على سبيل المثال حبك لطعام معين وكرهك للآخر، حبك للنوم وهكذا. وهنا يأتي دور الجهاد مع النفس. فمحبتك الطبيعية مثل؛ محبة النساء للأزواج ،محبتك لأطفالك، محبتك للجلوس بمكان محبب لنفسك وهكذا. وهذه المحبة تنقسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام؛ وأهم تلك الأقسام **"السابقين بالخيرات"** وهم يحيطون تلك المحبة الطبيعية بالنوايا الحسنة لله عز وجل. كما كان يقول النبي صلى الله عليه وسلم **"حُبب إليّ من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة"** فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الطيب والنساء ويستغل تلك المحبة في الزيادة في الدين حتى تصب تلك المحبة في ميزان الطاعات.

فمثلا النوم؛ قد أجعله بالنية مثل قيامي والنية بأن النوم يُعينني على طاعة الله عز وجل، وسآكل لأتقوى على عبادة الله عز وجل وهكذا. فيأكل الإنسان ما يحبه ويتلذذ به مع احتسابه لله عز وجل. يوجد بعض المحبة من الممكن تصريفها بهذه الطريقة وبعضها نغفل فيها عن تلك المسألة. لذلك الناس تنقسم إلى درجات وتلك الدرجات كثيرة جدًا جدًا، وعلى قدر استطاعتك في تحويل تلك المحبة لشيء يؤجر عليه، على قدر ما تُرفع درجاتك. وأشياء أخرى قد نغفل عنها؛ ولهذا فإن الإنسان في جهاد إلى الممات. هناك ناس تأخذ من تلك المباحات أو تمارسها دون أن تهتم باحتساب الأجر وهؤلاء لا عليهم شيء ولا لهم شيء. ولكن التعلق بشكل زائد بشيء يؤثر بلا شك على إيماننا بالنقصان.

وهناك أيضًا **محبة الظالمين** لأنفسهم، أي أنه يحب الشيء فيضعف أمامه ويعصي الله عز وجل. وقد يجتمع فينا جميعهم؛ ففي بعض المحب يغلب علينا حال السابقين والبعض الآخر يغلب علينا حال المقتصرين وبعض المحب يغلب علينا حال الظالمين لأنفسهم، وفي الثلاثة أحوال أنت مازلت في إطار الإيمان.

ربنا سبحانه وتعالى يقول: **"ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ**

يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33)". إذن فالثلاثة يدخلون الجنة، وفي الجنة الناس درجات فبقدر ما تحقق انتصار على نفسك تزيد في الإيمان والدرجات، وقد يتغير حالك يوم بعد يوم بين الزيادة والنقصان أو حتى في نفس اليوم. فنحن في جهاد حتى الممات.

وظن الإنسان أنه قد سقط عنه التكليف بفعل خير ما فعله؛ مدخل من مداخل الشيطان. فالمرأة مثلًا حين تظن أنها إن لبست النقاب أصبحت من الأخوات الملتزمات -بالرغم من تقصيرها في الكثير من الأشياء الأخرى-؛ يكون قد خدعها الشيطان وجذبها لحرب بعيدة كل البعد عن ساحة القتال الحقيقية، بالرغم أن ساحة القتال ممتدة طول النهار والليل. فلا يجب أن تحبس نفسك في عمل معين تظن نفسك بفعله أنك داخل الجنة وبالتقصير فيه قد أدخلت نفسك النار؛ لأن التفكير بهذا الشكل يجعلك بمجرد فعلك لهذا الشيء -الذي تظن أنه هو النجاة نفسها-؛ تتوقف عن الجهاد.

وهذا خطأ؛ لأن الإسلام مليء بالطاعات، وهناك معاصٍ كثيرة نحتاج إلى البعد عنها وهناك مكروهات نحاول أن نترفع عنها، وهناك مباحات نحتاج إلى فعلها لله، وهناك مباحات لا بد أن نأخذها بمقدار، وهناك تربية وتزكية للنفس، وهناك أمور أحتاج أن أزيد من علاقتي فيها بالله عز وجل. إذن فأنت في جهاد طول اليوم تربية للنفس أخذها مرة بالشدة ومرة باللين ومرة بالوعظ. ومرة نغفل ومرة نفيق ومرة نفكر، فأنا في جهاد طول النهار. إذن فالإنسان ليس محبوسًا في طاعة واحدة.

وهناك نقطة أخرى نريد أن نركز عليها وهي أن بعض الناس يتخيل أن التدين هو التجرد إلى الله عز وجل من حظوظ النفس تماما وأن الشعور بالرضا عن الله سبحانه وتعالى يتعارض مع رغبات الإنسان الطبعية، أو أن الشعور بالصبر على المصائب هو أن يصل إلى درجة التبلد أو اللاشعور فلا يشعر ولا يحزن ولا يغضب. وهذا خطأ؛ لأن الدين كتلة مشاعر. فأنت تحب الله سبحانه وتعالى والنبي صلى الله عليه وسلم وإخوتك في الله، وتغضب لله عز وجل إن عصيت أو غيرك عصى الله عز وجل، وتفرح لطاعة الله سبحانه وتعالى، وتحزن إن ابتليت بشيء وتحتسب، هذا الهم أجره على الله سبحانه وتعالى، وتحزن من الخاطر والوسواس، وتستحضر الرضا لتشعر ببرودة الرضا، وتتوكل على الله فتشعر بأنك وكلت أمرك إلى عظيم، وتحزن لفقدك شيء ولكن لديك يقين بأن الله يعلم ما يصلحك وأنه ما منعني إلا ليعطيني وما منعني إلا ليصلحني فتشعر ببرد اليقين. إذن فأنت كتلة مشاعر متحركة ومتقلبة، وهذا هو التدين نفسه، وليس المقصود بالتدين التبلد. فالإنسان يجب عليه ألا يحاول أن يطلب مرتبة غير موجودة.

ثم يكمل الشيخ ويقول:

"والمتأمل في جميع أنواع العبادة القلبية والعملية، يَرَى أن الافتقار فيها إلى الله هي الصفة الجامعة لها، فبقدر افتقار العبد فيها إلى الله يكون أثرها في قلبه، ونفعها له في الدنيا والآخرة، وحسبك أن تتأمل في الصلاة أعظم الأركان العملية، فالعبد المؤمن يقف بين يدي ربه في سكينة، خاشعًا متذللًا ".

سنأخذ الصلاة كنموذج على الطاعات التي نجاهد فيها طول اليوم؛ فعندما تسمع المؤذن يقول **"حي على الصلاة"** فتقول لا حول ولا قوة إلا بالله وهذا هو الافتقار. الصلاة شيء سهل جدا وليس لدينا أي مشكلة صحية تمنعني من تأديتها، ولكن لو شاء الله سبحانه وتعالى بتعجيزك أو شعورك بثقل الصلاة لفعل، فكون تأديتك لها هي منة من الله سبحانه وتعالى؛ لذلك نطلب العون من الله عز وجل في كل وقت وعند الشعور بذلك الثقل وتلك المشقة.

بعض الناس يتخيلون أن الشعور بثقل الصلاة هو النفاق وأن الشعور بسهولتها هو الإيمان. وهذا غير صحيح؛ لأن الشعور بالثقل قد يكون ابتلاء من الله سبحانه وتعالى ليبتليني، فأشعر بالحزن لثقلها ومشقتها ولكنني أجاهد نفسي وأتجهز لتأديتها وأطلب من الله المعونة. فالإحساس بالثقل لا يمكن أن تعتبره مبررا لتركها فتكون لا مباليًا، ولكنك مطالب بالجهاد فيأخذ الإنسان نفسه بالشدة تارة وبالترغيب والتحفيز تارة واحتساب الأجر عند الله سبحانه وتعالى تارة.

فعند كل صلاة قل لا حول ولا قوة إلا بالله وأنت مستشعر فضله عليك وراغب في أن تظل معونته لك باقية لأنك غير ضامن إن كنت ستستطيع غدًا تأديتها أم لا، وأنك لا تستطيع فعل شيء بدون الله عز وجل وأن الله لو رفع يد التوفيق عنك لهلكت. فلو أن الله خذلنا ما استطعنا القيام بأبسط الطاعات حتى قول "سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" رغم أنها كلمتان خفيفتان على اللسان كما وصفهما النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي حالة شعرت بالخذلان يجب علينا الجهاد واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى وطلب معونته، ومن غير المقبول الاستسلام وانتظار الموت. فقد يبتليك الله سبحانه وتعالى بالمعصية لتتأدب حتى لا تغتر بنفسك وتشعر بأنك فوق الناس. فإذا أدركت قوة وعظمة الله عز وجل وضعفك كمخلوق ضعيف نجوت. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" فالنبي صلى الله عليه وسلم رغم منزلته عند الله عز وجل والذي كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه يطلب الثبات من الله فكيف بحالنا!

فالشعور المستمر بفقرك واحتياجك لله عز وجل في كل كبيرة وصغيرة وطلب الاستعانة به في أبسط الأمور هو النجاة، فتطلب معونته على صلاة الفجر، ومداومة الذكر، وقراءة الورد. وبدون استشعار ذلك الشعور ستهلك. والمؤمن الحق يعرف أن العطاء والمنع تربية من الله عز وجل. فالشعور بعدم محبة الله لك عند عدم قيامك لصلاة الفجر لا بد أن يدفعك للجهاد والبقاء

على بابه وعدم الاستسلام، بدلا من ترك الأمور بجملتها. فمن لنا غير الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة؟ ولهذا يقول الله تعالى **"فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ".**

وافتقارك لله سبحانه وتعالى عزة، وافتقارك لمخلوق ذل. فالحمد لله الذي لم يجعل الإنسان يفتقر إلى حجر أو بشر، وجعل افتقار العبد له وحده لا شريك له. والحمد لله الذي لم يجعلنا نستجدي الجنة من إنسان، وإلا كنا طلبناها وتذللنا وفي النهاية لن ندخلها، بل إننا نطلبها من الكريم وحده.

الحمد لله الذي لم يجعلنا نحتاج للجوء إلى كاهن في كنيسة طلبًا لصك غفران. فإن احتجت إلى الاستغفار يكفي أن تتوضأ وتستغفر الله عز وجل، تقول سبحان الله وبحمدة مائة مرة؛ فتُغفر ذنوبك وإن كانت مثل زبد البحر. وإن ارتكبت كبيرة من الكبائر تتوضأ وتصلي ركعتين وتقول يا رب اغفر لي؛ فيغفر لك. فربنا سبحانه وتعالى الملك الكريم ونحن في حاجة إليه ونعلم افتقارنا إليه، وأننا سنعصي وسنقع وليس لنا غيره في النهاية **(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)**. فالفرار منه إليه نسأل الله أن يعافينا بمنه وكرمه.

فإذن الافتقار إلى الله عز وجل هو فعلا لب العبودية، أن تستشعر فعلا ضعفك وقدر نفسك وأنك إن تُركت إلى نفسك وعقلك فذلك هو الخذلان الحقيقي. ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في ركوعه: **"اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي"**.

استشعر آيات الله عندما تقرأها، واستشعر الذكر؛ حتى تشعر بافتقارك. واجعل لنفسك خطوطا حمراء لا تتجاوزها. فاجعل فرض الصلاة مثلًا خطًا أحمر، فقل عند كل أذان لا حول ولا قوة إلا بالله وقم إلى صلاتك، وبعد كل صلاة استغفر من تقصيرك.

فالطاعات في الدنيا كأنك دخلت بيت به ياقوت وذهب ومرجان وأنت مطالب بأن تتزود منهم للآخرة. وهذا الشعور يجعلك تستعين بالله عز وجل على ما تقصر فيه. فأي باب من الطاعات انشرح له قلبك وسهله الله عليك؛ ادخل به وسيفتح الله لك بابًا أكبر، وخذ من الطاعات ما تقوى عليه، ففي حديث للنبي صلى الله عليه وسلم: **"إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ فأوغِلْ فيه بِرِفْق، ولا تُبَغِّضْ إلى نفسِك عبادةَ الله؛ فإنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَع، ولا ظَهْرًا أَبْقى، فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة".** فالأهم أن تداوم حتى ولو بالقدر اليسير، فعلى سبيل المثال صلِ ولو ركعتين قيام بعشر آيات ولا تعجز نفسك عنها بحجة أنك لا تصلي عشرين ركعة أو أنك لا تقرأ جزء كامل في صلاتك.

****
****